مجلة آفاق علمية ISSN: 1112-9336
المجلد: 15 العدد: 02 السنة 2023 ص 338 - 357

تاريخ الإرسال: 2022/10/29 تاريخ القبول: 2023/05/24
تاريخ النشر: 2023/06/03

التّوفيق بين الحداثة و التّراث عند الطيّب دبّه ـقراءة في كتابه التّفكير السّيميائي في اللّغة و الأدبـ

Tayeb Deba's conciliation between modernity and heritage- reading in his book semiotic thought in language and litterature-

غالمي نورية [1]، مصطفاوي جلال [2]
جامعة عين تموشنت (الجزائر)، nouriaghalmi1988@gmail.com [1]
جامعة عين تموشنت (الجزائر)، zourba1976@live.fr [2]

الملخّص:

لقد أحدثت ثنائية الحداثة والتراث جدلا واسعا في الفكر العربي المعاصر، وأنتجت عدّة مفاهيم تكاد تكون في كلّ مرة مغايرة لما قبلها، فتارة تعبر عن استمرارية في الإنتاج الإنساني خلال مسيرته الحضارية وتارة تعبر عن الانفصال والنكران بتزعم الحاضر الحداثي في مقابل ذلك الغابر الماضي، وتارة أخرى يكون فيها التراث منغلقا على نفسه رافضا لكل ما هو حديث.

أما المشهد الذي نروم الحديث عنه هو المشهد التوافقي، في أعمال الأستاذ "الطيب دبه" من خلال كتابه "التفكير السيميائي في اللغة والأدب دراسة في تراث أبي حيان التوحيدي"، لتظهر لنا مقاربة من العيار الثقيل، كونها جمعت بين الفكر التراثي العربي الأصيل و بين الفكر الغربي الحداثي.

الكلمات المفتاحية: التّراث، الحداثة، الطيّب دبه، السّيميائيات، العلامة، المقاربة.

Abstract:

The duality of modernity and heritage has created a wide debate in contemporary Arab thought and produced several concepts and connotations which are almost different from the previous ones.

This divergence has often affected their function and sometimes lead to their separation and other times lead to the closing of the heritage on itself rejecting everything modern, but the scene which we are looking for is the consensual scene in the works of professor Tayeb Deba through his Book semiotic thought in language and literature. It shows us a high-caliber approach that it combined authentic Arab heritage thought with modernist Western thought.

Keywords:

hritage; modernity; Tayeb Deba; semiyat; mark; approach.

المؤلف المرسل: غالمي نورية، NOURIAGHALMI1988@GMAIL.COM

1. مقدمة:

يكثر الحديث في ساحة العلوم الإنسانية عامّة عن قصّة الحداثة والتراث، قصة تتبني أسسها حالما يعرف المجتمع الغربي النهضة الغربية، والتي ساعدت على تطوره في شتى المجالات وعلى رأسها المجال الصناعي، مما أتاح له الفرصة لغزو المجتمعات الأخرى ومنها المجتمع العربي باسم الحداثة والتفتح[1]، لينتقل الحديث بعد ذلك عن هذا الوافد الحداثي الجديد، والمتمثّل في الفكر اللساني الغربي، وما يحمله من سعة في الطرح مسّت أصول هذا المجتمع وما يزخر به تراثه الإسلامي، ليتلقى ردود فعل كثيرة، تراوحت ما بين القبول والرفض، وما لبث الأمر حتّى شهد العالم العربي كذلك يقظة عربية.[2]

وبموجب هذه اليقظة، انطلقت موجة من التأليف والتصنيف في شتى المجالات تنمّ عن الوعي الكافي بما تحتويه الحداثة الغربية ضمن ما يسمى بمشروع قراءة التراث، الذي سيخيم عليه الطابع الجدلي تحت معاهدة مفادها الحقّ لمن أثبت الحق، فإن هو مال ناحية الحداثة كانت النصرة لها، وإن هو عكس الميلة نحو التراث كانت النصرة للقضية التراثية، إلا فيما التمسناه عند ثلة من الباحثين العرب، وعلى رأسهم الطيب دبه، كونه تخطى هذه الجدلية ليجعل منها مقاربة يميل طرفها الجديد على طرفها الأصيل، بغية البحث عن سبيل لتطوير هذا الأخير حتى يصير في مصاف العلوم الحديثة، بدلا من الجمود الذي انتابه ردحا من الزمن.

إشكالية الدّراسة:

ما السبيل الذي انتهجه "الأستاذ الطيب دبّه" لوضع المقاربة، والتوفيق بين أكثر الثنائيات جدلا؛ ثنائية الحداثة والتراث؟

فرضيات الدّراسة:

تمثلت في بعض العناصر الأساسيّة في البحث، والتي من شأنها الإجابة عن هذه الإشكاليّة، و هي كالتالي:

- ✓ مكانة التراث عند الطيب دبه.
- ✓ الحداثة في منظور الطيب دبه؛ هل هي وجه جديد للتراث أم امتداد له ؟
- ✓ مفهوم المقاربة بين ثنائية التراث و الحداثة عند الطيب دبّه.
- ✓ مظاهر المقاربة بين هذه الثنائية عند الطيب دبه.

أهمّية الدراسة:

تستقي هذه الدراسة أهميتها من حيث إنّ الحداثة والتراث هي من أوسع الثنائيات طرحا وأشملها مساحة، مما سمح لها أن تطأ ميدان اللغة والأدب، وتصنع لنفسها موضعًا لا يستهان به في الفكر العربي المعاصر.

الهدف من الدراسة:

تهدف هذه الدراسة إلى استشراف الجانب الإيجابي لثنائية الحداثة والتراث، جانب ليس كغيره من جوانب الجدل و تجاذب الأطراف، وهذا من خلال ما أنجزه الأستاذ الطيّب دبّه في كتابه "التفكير السيميائي في اللغة والأدب" بحيث نركز على مظاهر المقاربة التي وضعها بين تراث أبي حيّان التوحيدي وبين النّظريات السيميائيّة الحداثية.

منهج الدراسة:

إنّ منهجنا في النّظر إلى التّقارب بين الحداثة و التراث، هو المنهج الوصفي الذي يتخلّله بعض التّحليل، وهو نافع في مثل هذه الحالة، لأنّ أسباب الجدل لا تفتأ تفرض نفسها على واقع الحداثة وخاصة في مجال اللغة و الأدب.

2. التّعريف بالأستاذ الطيّب دبه:

ينتمي الأستاذ إلى جامعة عمار ثليجي –الأغواط– وهو من مواليد 1962/10/22، بقصر الشلالة الجزائر، التحق بقسم اللغة العربية وآدابها في ديسمبر 1998 ليحصل على رتبة أستاذ محاضر "أ"، ثمّ رتبة أستاذ التعليم العالي منذ 08 جانفي 2015، بتخصص اللسانيات و اللسانيات العربية[3]، قدم خلال هذه الفترة العديد من الأعمال العلمية، تندرج في أغلبها تحت مجال استثمار اللسانيات في دراسة قضايا اللغة العربية ، وذلك وفق المعالم التالية[4]:

- ✓ الدراسة النظرية التحليلية لبعض قضايا اللسانيات الحديثة، مثل مشكلات الترجمة، وقضايا النّظام اللساني(أنجز ستة بحوث).

- ✓ استثمار مفاهيم اللسانيات الحديثة في دراسة قضايا اللغة العربية من أجل الوقوف على خصائصها الصوتية و الصرفية و النحوية، و اكتشاف أسرارها البيانية (أنجز ستة بحوث)
- ✓ استثمار مفاهيم اللسانيات الحديثة في تعليميات اللغة العربية (أنجز أربعة بحوث).
- ✓ استثمار مفاهيم اللسانيات الحديثة في إعادة قراءة التراث، وقد توجّه في هذا المجال إلى قراءة الدرس اللغوي لدى علماء أصول الفقه، وإلى قراءة أعمال أبي حيّان التّوحيديّ، في سياق البحث عن معالم التّفكير السّيميائي في التراث العربي.

وكتابه الذي نخصه بالقراءة "التفكير السيميائي في اللغة والأدب: دراسة في تراث أبي حيان التوحيدي"، هو من قبيل استثمار مفاهيم اللسانيات الحديثة في إعادة قراءة التراث، ضمن ما يسمّى "بلسانيات التراث"، باعتبارها كتابةً لسانيّةً تتخذ "التراث اللغوي العربي القديم في شموليته موضوعا لدراساته المتنوّعة، أمّا المنهج الذي يصدر عنه أصحاب هذه الكتابة فهو ما يعرف عادة بمنهج القراءة أو إعادة القراءة، ومن غايات لسانيات التراث وأهدافها قراءة التصورات اللغوية العربية القديمة وتأويلها وفق ما وصل إليه البحث اللساني الحديث والتوفيق بين نتائج الفكر اللغوي القديم والنظريات اللسانية الحديثة، وبالتالي إخراجها في حلة جديدة تبين قيمتها التاريخية والحضارية".[5]

3. مكانة التراث عند الطيب دبه:

يعتبر الأستاذ الطيب دبّه من المفكرين العرب الذين يعتزّون بتراثهم العربي الإسلامي، ذلك التراث الذي يعرف على أنه: "كل ما وصل إلينا من الماضي داخل الأطر الحضارية السائدة، فهو إذاً قضية موروث، وفي نفس الوقت قضية معطى

حاضر على عديد من المستويات"[6]، وبالتالي لا يمكن تصور التراث محصورا فقط في ما ورثناه من أشياء مادّية بل هو أيضا ذلك الإرث الفكري المخلّد في المجلدات والمخطوطات، و الذي يمثل رأس مال الأمة العربية ويخوّل لأصحابه حقّ التصرّف فيه ما لم تمسّ حرمته وما لم تُنتهك قدسيته.[7]

وبالرغم من أنّ هذا التراث يضرب بجذوره في عمق التاريخ، إلا أنّ الأستاذ غاص في أعماقه وبحث عن السبيل الذي سيوصله به إلى عنان الحاضر، والذي تمثل في قراءته وتتبع مساره في ضوء المناهج والنظريات اللسانية الحديثة بعيدا عن التعصب له أو الانغلاق عليه، وهذه الرحلة التاريخية بل والحتمية الحضارية جعلت من الأستاذ مفكرا عصريا، له من الوعي بالقضايا الفكرية المعاصرة ما يكفي، وله من الاطلاع على خبايا تراثنا ما ينفي به تبعيتنا للآخر، مما أكسبه الوسطية في التعامل مع الفكر التراثي لعلمائنا القدامى والنظريات الحديثة في الفكر الغربي المعاصر بزعامة المنهج التوفيقي، وهذا يتجلى لنا حالما نفتح دفتي كتابه(التفكير السيميائي في اللغة والأدب).

ومما ثبت عن الأستاذ أنه يؤمن بمبدأ الخصوصية الدينية للفكر التراثي، والتي على إثرها استطاع التراث أن يتجاوز في دروسه كثيرا من معطيات الفكر الغربي المؤطرة بمعتقدات الفكر المادي الحر[8]، ونظرته للتراث بهذه الخصوصية إن دلت على شيء فإنما تدلّ على تقديسه لدينه الإسلام، واعتزازه بتراثه العربي، مما أدى به إلى انتقاء الأدوات والإجراءات اللازمة مما أتت به الحداثة في سبيل تجديده، والارتقاء به بدلا من التعصب له والانغلاق عليه.

4. الحداثة من منظور الطيب دبّه:

هل هي وجه جديد للتراث أم هي امتداد له ؟

في هذا البحث نحن لسنا بصدد التعريف بالحداثة، فالحديث عنها سيطول طول البحوث التي أقيمت حولها، وسنكتفي في تعريفها بقول شاع في الأوساط الثقافية أنها:" قطع الصلة بالتراث" (...) أو أنها "قطع الصلة بالدين" أو "إنها العلمانية".[9]

إنّه تعريف لطالما أخاف الباحثين العرب، معظمهم أصحاب تراث وعقيدة فمن غير الممكن أن يجازفوا بعقيدتهم، كما لا يمكنهم الانفصال عن تراثهم، ولكن المعروف أيضا أنّ للحداثة أفكار وأهداف أخرى غير تحطيم التراث والدين الذي يعود إليه هذا التراث، ولاسيما فيما يخصّ قضية تبنّي المناهج الغربية وكيفية التعامل معها، وذلك عن طريق عملية انتقائية" لإجراءاتها التحليلية والمنهجية [لأنها] تأخذ صفة كونية وشاملة ما دامت تنطلق من مبدأ تشابه اللّغات، وصدورها عن طبيعة عقلية واحدة في الذات البشرية"[10]، الأمر الذي جعل المفكرين العرب يتجهون صوب إعادة قراءة التراث في ضوء ما استجدّ من نظريات غربية، وفي هذا الصدد يقول الطيب دبّه: "إنّ الاهتمام بقراءة التراث ودراسته أمر مشروع، وحاجة ماسة، لكنّه عمل يظلّ نجاحه مرهونا بقاعدة معرفية متينة تجاه علوم الغرب ونظرياته، وذلك من أجل التحلّي بالأدوات الضرورية لقراءة التراث قراءة حداثية تعيننا على فهم مبادئه وتوجهاته، واستيعاب قيمه وخصوصياته وتمكّننا من إدراك الآخر وتصحيح علاقتنا به ومسايرة تطورات الفكر الإنساني المعاصر دون الوقوع في مزالق التبعية والخضوع".[11]

من خلال هذا القول يظهر وعيه التام بقضية الحداثة الغربية، ويمكن القول أنه وعي نقديّ لهذه الحداثة والذي لا ينفكّ يمثّل تيارين فكريين "أحدهما دعا إلى الأخذ بالشروط التاريخية و المقدّمات الفلسفية التي قامت عليها الحداثة الغربية لولوج المجتمعات العربية إلى الأزمنة الحداثية، وتيار فكريّ آخر فصل بين روح الحداثة

وتطبيقاتها بوصفها تجربة تاريخية في المجتمعات الغربية، ودعا إلى طرح بديل منها نظرا إلى استحالة استنساخ التجارب الحداثية مع إمكان الإفادة منها في عمليّة ولوج المجتمعات العربية إلى أزمنة حداثية مخصوصة".[12]

ويندرج تفكير أستاذنا الحداثي ضمن هذا التيار الأخير مادام يدعو إلى المحافظة على مبدأ الخصوصية وعدم الخضوع والتبعية للآخر وهذه مرتبة شريفة يبلغها المجتمع العربي، ولن نَسْتَوْفي هذه المرتبة كما أنّه: "... لا يمكننا تصحيح علاقتنا بالآخر وإزالة تبعيّتنا عنه إلا إذا كانت لنا منطلقاتنا الذاتية وخلفياتنا المتميزة، التي تقوم على أسس مرجعية أصيلة، وحينها ننظر إلى ما قدّمه الغربيون بمنظارنا نحن نناقش أفكاره، ونعرضها على منطلقاتنا فنأخذ ما يناسبنا، ونترك ما لا يناسبنا".[13]

ونظنّ أنّ أستاذنا بهذا القول يلمّح إلى تجديد التراث في ظلّ ما تقتضيه المعرفة المعاصرة أكثر من تلميحه إلى القراءة الحداثية للتراث، ذلك أنّ للتجديد معنًى غير الذي تحمله الحداثة، وهذا ما يوافق به رأي الأستاذ حنفي في كتابه "التراث والتجديد" حينما يتحدّث عن الهويّة فيقول: "... وإذا كان البحث عن الهويّة يأتي عن طريق تحديد الصلة بين الأنا و الآخر، فإنّ عملية (التراث و التجديد) هي الكفيلة بتحقيق ذلك لأنّها اكتشاف الأنا وتأصيلها وتحريرها من سيطرة الثقافات الغازية مناهجها وتصوّراتها ومذاهبها ونظمها الفكرية، وتساعد أيضا على مواجهة التحدّيات الحضارية والغزوات الثّقافية التي نحن ضحيّة لها في هذا القرن، وتنقلنا من وضع التّحصيل والنّقل إلى وضع النّقد والخلق والابتكار".[14]

نلاحظ أنّ نظرة الأستاذين إلى طبيعة العلاقة بين الأنا والآخر، هي نظرة سَتَمُرُّ بمرحلتين؛ بدايةً مرحلة النّقد ومناقشة الأفكار الغربية، وصولا إلى مرحلة الخلق والابتكار، بمنطلق تراثيّ أصيل.

وبموجب هذا الطرح يمكننا القول أنّ الحداثة ليست امتدادا للتراث في نظر الأستاذ دبّه، كما أنها ليست وجها جديدا له، إلا إذا خضعت لآلة النّقد مع الوعي والتّمحيص بزعامة مبدأ الخصوصية الدينية، ومنطلقاتنا الذاتيّة.

5. مفهوم المقاربة بين ثنائية التراث والحداثة عند الطيب دبّه:

إنّ تحديد معنى المقاربة بين هذه الثنائية عند أستاذنا، يتطلب منّا التمعّن في قوله هذا: "... وفي سياق الاهتمام بقراءة التراث على هذا النحو المنهجيّ الواعي بأهمّية المقاربة بين التراث و الحداثة وضعنا منهجيّة البحث، وحدّدنا أهدافه لتتمحور حول محاولة البحث عن معالم التفكير السيميائي عند التوحيدي مستعينين بما جاء به الغربيّون في علم العلامات من مفاهيم و نظريات".[15]

توجد في هذا القول عدّة كلمات مفتاحيّة، لا تخرج عن كونها تمثل الحداثة والتراث بصيغة التوفيق والمقاربة؛ فكلمة(قراءة التراث) تضرب في عمق التاريخ وتوحي بذلك الكم الهائل من المنجز اللغوي والفكري العربي، وكلمة (التفكير السيميائي) توحي بالنظريات الغربية التي أتت بها الحداثة، وبين هذه الكلمة وتلك، نلاحظ ذلك الخيط الرابط بينهما، الذي وضعه أستاذنا من خلال استعانته بالمفاهيم والنظريات الغربية في علم العلامات لقراءة هذا التراث؛ وبالتالي سيتشكّل عنده المنهج التوافقي لرسم المقاربة لهذه الثنائية، مما سيساعد على تلاشي ذلك السجال والجدال اللذين عُرفت بهما .

وبهذا سينفتح فكر الأستاذ على ما جاءت به هذه النظريات وبالتحديد علم العلامات أو السيميائيات انفتاحا واعيا يخدم مقاربته المنهجيّة مع التراث العربي الإسلامي، والذي سيمثّله في هذا البحث سبعة كتب للتوحيدي*[16]، وهي: "الإمتاع والمؤانسة، والمقايسات، ومثالب الوزيرين، والبصائر والذخائر، والإشارات الإلهية، والهوامل والشوامل، ومجموعة رسائله".[17]

هذه هي الكتب التي ستكون عند أستاذنا محلّ البحث لرصد أهمّ المقولات التراثية التي من شأنها مقاربة المقولات الحداثية، والدفاع عن فكرة التراث التي هي في نظره مظهر من مظاهر التوافق، وذلك حينما يؤكّد على ضرورة الاعتراف بإسهام التراث العربي الإسلامي في تناول الفكر العلامي[18]، مع عدم الفصل بين الفكر العربي وعقيدته الإسلامية، وهذا لدحض المقولة الحداثية التي تنادي بالثورة على كلّ ما هو ماض، أو الثورة على المعتقدات، وبناء عليه "فإنّ كلّ دراسة حداثية لرمز من رموز التراث أو لظاهرة من ظواهره الفكرية تغفل ذلك الرباط الديني الوثيق الذي تؤول إليه جميع البحوث والدراسات العربية الإسلامية هي جهد قاصر عن إدراك الحقيقة في كلّيتها وعمل قليل النّفع عديم الجدّية"[19]، وبالتالي تجنّب طمس التراث أو تشويهه، وكذا عدم الإجحاف في حقّه حتّى نضمن المقاربة السّويّة بين الدّفتين.

1.5/ صعوبة المقاربة عند الطيب دبّه:

هناك العديد من الصعوبات التي ستكون حجر عثرة أمام هذه المقاربة وتتمثّل أهمها في النّقاط التالية:

- ✓ إنّ مشروع قراءة التراث ليس بالهيّن ولا بالسّهل بل هو عظيم الشأن باعتبار أنّ التراث رأس مال الأمّة العربية و ركيزة حضارتها، فهو حصيلة عدّة قرون من البحث والتّقصّي والتفكير والتّحليل، وكتابة النتائج في مخطوطات ومجلّدات التي ربما لم تستطع مكتباتنا الحصول عليها كاملة، مما سيزيد من ثقل المسؤولية أثناء قراءة هذا التراث، فكم من قضيّة بقيت مبهمة لانعدام توفّر أجزائها كاملة، الأمر الذي يؤدّي بالباحث إلى وضع عدّة قراءات للقضية نفسها التي تُكسبها طابع النسبية، وهذا لا يخدم القول بعلميّة القضية، كما حدث لأبي حيان التوحيدي الذي تميّز بمكانته العلميّة، والذي أحرق كتبه في آخر أيّامه، ولنا أن نتخيّل حجم البحوث والحقائق التي توصّل إليها وقام بطمسها، وبالرغم من ذلك وفي ظلّ ما وصلنا من

كتبه، نقول أنّه قد أثبت حسّه العلميّ و نباهته الفكرية التي يضاهي بها العلماء المعاصرين.[20]

✓ اللغة التي كتب بها هذا التراث تعتبر الأقرب إلى البيئة الأولى، والمعروف أنّه كلما ابتعدنا عن البيئة الأولى للغة كلّما شقّ علينا فهمها، باعتبار أنّ اللغة تتطور، وقد يصعب الأمر أكثر إذا ما وطئنا ميدان الفلسفة، و ما فيه من مخرجات ونتائج يتيه بها الفكر، وما لاقاه أستاذنا من صعوبة هو سليل هذا الطرح حينما شدّ الرحال نحو تراث أبي حيان التوحيدي، "لاسيما فيما يرتبط من مؤلفاته، بالحديث عن قضايا التصوّف والفلسفة، وقد أدّى ذلك أحيانا إلى صعوبة في فهم أفكاره بما يعوق إصابة الغرض، ويربك مجالات البحث و التقصّي".[21]

✓ كل كتابات التوحيدي هي عبارة عن ملاحظات مبعثرة، أي أنّها لا تتّسم بمنهج علميّ واضح[22]، ممّا يصعّب عمليّة المقاربة مع المناهج العلميّة الحديثة التي تتضمّنها الحداثة.

✓ من خلال العنوان الذي وضعه الأستاذ لهذا البحث يظهر وكأنّه يقف موقف المحاكمة[23]، الذي سيُتّخذُ كآلية هدفها هو الفصل في علميّة وحداثة المنهج التراثي، وفقا للأصول الحداثية في هذا المجال، إلا أنّ مبدأ الخصوصيّة الدّينية الذي يعمُّ كتابات التوحيدي بل وباقي التراث الإسلامي سيحول دون تطبيق موقف المحاكمة، لينجم عنه تلك المقاربة التي تعتبر ضروريّة في نظر الأستاذ مع ما جاء به العلم الغربيّ الحديث و " ...الذي لا بد من الرّجوع إلى مفاهيمه ونظرياته باعتبارها الأدوات المنهجيّة التي نقيس بها درجة النّضج والنّبوغ فيما ورد في كتابات التوحيدي من معالم سيميائية...".[24]

هذه النقاط التي قمنا بعرضها والتي مثّلت صعوبات المقاربة، سيتعامل معها الأستاذ بوعي وتمحيص، مع احترام لمبادئ كلا الطرفين؛ الحداثيّ منه والتراثيّ، في سبيل بَسْط منهج توفيقي يسمح بتطور الفكر الإنساني المعاصر.

6. مظاهر المقاربة بين التراث و الحداثة:

الكتاب الذي خطّه الأستاذ الطيّب تحت عنوان "التفكير السيميائي في اللغة والأدب: دراسة في تراث أبي حيّان التوحيدي" يحوي العديد من المعارف والعلوم التي تنتمي إلى حضارتين كبيرتين هي الحضارة العربية الإسلاميّة والحضارة الغربية، حاول الأستاذ أن يربط بينهما بمنهج توفيقيّ.

ولتحديد المجال البحثيّ، حتّى يستطيع ضبط أوجه التوافق؛ اختار المجال السيميائي، فوضع تقسيما لهذا الكتاب يتكوّن من تمهيد و ثلاثة فصول، وسنوضّح ذلك برصد أهمّ مظاهر هذه المقاربة على حسب التقسيم الذي ارتضاه لكتابه:

1.6/ التمهيد كان بعنوان: من معالم التفكير السيميائي في التراث العربي الإسلاميّ:

من خلال هذا التمهيد يظهر لنا منهج الأستاذ التوفيقي، الذي يعبّر عن ما اكتسبه من معارف خصّت العلم الحديث والمتمثلة في السيميائيات، كما أنّه يعبّر عن اطلاعه الواسع ببوادر هذا العلم في التراث العربي الإسلامي، وفي محاولة منه لإبراز الرابط المشترك بينها عمد إلى تقسيم هذا التمهيد إلى فكرتين رئيستين هما:

- ✓ المعالم الكبرى للسيميائيات في الثقافة الغربية.
- ✓ المعالم الكبرى للسيميائيات في التراث العربي الإسلامي.

إنّها معالم عامّة تخصّ مختلف العلماء العرب في مجال السيمياء، ليقارب بها الفكر الغربي، حيث ظهرت سبل التوافق فيها، إلا فيما يخصّ استعمال بعض المصطلحات؛ فقد اختلفت عند الطرفين ولكنّ المدلول واحد.

وبعد هذا التمهيد الشامل، ينتقل الأستاذ إلى عرض التّفكير السيميائي عند أبي حيّان التوحيدي بالتحديد، وكان ذلك في ثلاثة فصول.

2.6/ الفصل الأوّل تحت عنوان: مفهوم العلامة عند التّوحيدي:

وهنا يتطرّق الأستاذ إلى الأسس الفكريّة لتصوّر العلامة عند التوحيدي بناء على مبدأ الخصوصيّة منها:

- ✓ الالتزام بمنهج التفكير.
- ✓ الاعتماد على النّظر العقليّ والتفكير المنطقيّ.
- ✓ الاعتماد على مبدأ المنفعة؛ أي أنّ تصوّر العلامة عند التوحيديّ سيكون مبنيا على أسس وعقيدة إسلاميّة كلّها توحي بوحدانيّة الله عزّ وجلّ.[25]

كما أنّ العلامة عند التّوحيدي هي من الوسم والعلامة والدّليل، والتي سيتوسّع مجالها لتشمل عنده علم الإنسان ككل، وبالتّالي تستوعب جميع أنواع العلامات في الوجود، وهذا التعريف يقارب التعريف الذي قدّمه "بيرس" للعلامة حينما يقول: "فالعلامة أو الصّورة Présentement هي شيء ما من وجهة ما و بصفة ما".[26]

ومن النقاط التي يلتقي فيها العلم الحديث مع ما وجد من إشاراته عند التوحيدي هي صعوبة الكلام على الكلام إذْ تُعرف عند السيميائيين المحدثين بثنائية (اللغة الموضوع) (Langage Objet)، و (اللغة الواصفة) (Meta Langage)[27] .

وكذا في جزئيّة العلامة المتّصلة بمظاهر الكون فهي تتبني على الخصوصيّة الدينيّة التي من خلالها يرى التوحيدي أنّ كلّ شيء في هذا الوجود ذو حكمة ودلالة واحدة، فالعلامة هنا هي(دال و مدلول) أي(علامة كبرى) تدلّ على وحدانيّة الله عزّ وجلّ، مما يضع المنهج التوافقي على المحكّ و يؤدي إلى القول أنّ هناك تنافر بين الطرفين في نظرتهما للعلامة، ذلك أنّ الغربيين يحصرون تفسيرها في دائرة نظرتهم

المادّيّة المحدودة العاجزة عن إدراك الصّلة بين الله سبحانه وتعالى والإنسان[28]، ويبدو أنّ هذه هي النقطة الوحيدة التي تُفرّق بين التَّفكيرَيْن، والتي تسمى كما ذكرنا آنفا بمبدأ الخصوصيّة الدينيّة، وفيما عدا ذلك فيمكننا أن نجد جزئيّة أخرى تجمع بينهما دون اختلاف؛ وهي قضيّة (الحسي والعقلي في إدراك العلامة)، فالعلامة عند التوحيديّ كما يقول الأستاذ "يتمّ إدراكها عبر مستويين هما: الإحساس والعقل، وقد وجدنا "بيار غيرو" يعتبر هذين المستويين نمطي التعبير السيميائي الأكبرين ويدعوهما الفهم والإحساس"[29]، وعلى إثر هذا القول سيعود المنهج التوفيقي إلى حالته الأولى ليقارب بين هذين المستويين تقاربا تكاد تكون المصطلحات والمفاهيم فيه واحدة رغم تباعد الأزمان.

3.6/ الفصل الثاني تحت عنوان: مفاهيم إنتاج المعنى اللغوي عند التّوحيدي:

وتمثلت فيما يلي:

المفاهيم الإجرائيّة: وهي التّقابل، العلاقات الترابطيّة، العلاقات التركيبية، النّظام، سياق المقام[30]، هذا عند التوحيدي، أمّا عند النّظريات الغربيّة فهي على الشّكل الآتي:

التقابل Opposition: وجد عند سوسير تحت مصطلح (Opposition Phoniques).[31]

العلاقات الترابطية Rapports Associatifs: وهي تجري ضمن بعض المستويات الدلالية، وهي عند التوحيدي:" الترادف، والمشترك اللفظي، وعلاقة الجنس بالأنواع وعلاقة النوع بالشخوص، وعلاقة الكلّ بالأجزاء وعلاقة الموضوع بالحدود وعلاقة الحدّ بالمواضيع"[32]، والمقاربة التي يمكن أن توجد هي مع ما يشير إليه سوسير بالعلاقات الترابطيّة (Rapports Associatifs).[33]

العلاقات التركيبية Rapports Syntagmatiques: بداية يشير الأستاذ إلى أنّ التوحيدي قد انتبه إلى أهمية التفاعل بين العلاقات الترابطيّة والعلاقات التركيبية، وذلك من خلال اهتمامه بالعلاقات النحويّة التي يخضع لها ترتيب الكلام وهذا ما أشار إليه أيضا سوسير ويوافقه في الرأي رولان بارث" R. Barthe".[34]

النّظام Système: هنا التوحيدي يعي تماما أهمّية النظام في إنتاج المعنى اللغوي وذلك من خلال قوله: "وينبغي أن يكون الغرض الأوّل في صحّة المعنى والغرض الثاني في تخيّر اللفظ والغرض الثالث في تسهيل النّظم وحلاوة التأليف".[35]

يظهر في هذا القول نظام ثلاثيّ وفق ترتيب منهجيّ لإعطاء المعنى المراد الوصول إليه، وهذا مقارب لما جاءت به جان مارتينيه J. Martinet في تحديدها لمفهوم النظام حينما قالت: "لا يعني نظام ما مجرّد جمع للعناصر إنما هو وجود مجموعة من الوحدات تربط فيما بينها مجموعة من العلاقات من أجل تحقيق مجموعة من الوظائف، إنّ تحديد نظام ما يتمّ –ابتداءً– عن طريق الوظيفة أو الوظائف الموكلة إليه، ثمّ بعد ذلك، عن طريق الوسائل المؤدّية إليها".[36]

سياق المقام: اهتمّ التوحيدي بهذا العنصر منذ زمن بعيد مما يبرز ذكاءه الذي اشترك فيه مع اللسانيين البنيويين وكذا التوليديين، ليتعدّى ذلك إلى اشتراكه فيه مع ما جاءت به النظريات التداوليّة تحت عدة مصطلحات منها: (Contexte : السياق)، (المقام : Situation) أو (الظروف : Circonstances) [37]، لنصل إلى القول بأنّ التوحيدي: "قد ساهم في وضع اللبنات الفكريّة الأولى لما صار يدعى في العصر الحديث بعلم السلوك "Science de Comportement".[38]

4.6/ الفصل الثالث بعنوان: من معالم التفكير السيميائي لدى التوحيدي في قضايا الأدب والنّقد:

في هذا الفصل تحدث الأستاذ بإسهاب عن تحوّل الدراسة السيميائية من وجهة لسانية إلى وجهة يكون فيها التعامل مع اللغة بوصفها عملية اتصال واقعية، حيث تمّ ظهور ما يسمى بالسيميائيات الأدبية، والتي ساهمت في ظهور مصطلحات مثل: "النص والتّناص والنّصية، والتّنصيص والخطاب والتأويل والقراءة، وأدبية النّص ومرجعية النّص والمعنى الإيحائي والانزياح".[39]

ومن هنا سيضع الأستاذ مقاربة بين نظرة التوحيدي في مجال الأدب والنقد وبين ما توصّل إليه السيميائيون وخاصّة فيما تعلق بنظرته لمفهوم البلاغة:

- ✓ على أنها أداة وظيفية لتحقيق المعنى قبل كلّ شيء.
- ✓ رؤيته للبلاغة ويحدد قواعدها من وحي ملاحظاته النقديّة الجادّة لنظام اللغة الأدبية، ضمن إطارها التداولي الخاضع لأذواق المجتمع ولقيمه الاستعمالية.[40]

وقد ذكر "الأستاذ الطيب" العديد من هذه الظواهر التي لا تقلّ أهمّية عمّا ذكرناه في هذا البحث، وقد صاغها بمنهج توفيقي كان فيه من الواعين بأهمية الإجراءات والأدوات المنهجية التي جاءت بها النظريات الحديثة، كما أنّه كان ممّن ثمّنوا جهود العلماء المسلمين افتخارا بالتراث العربي الإسلامي، بهدف تطويره والارتقاء به إلى مصاف العلوم الحديثة.

7. خاتمة:

تعتبر قراءة التراث في ضوء النظريات الغربية الحديثة من أصعب ما قد يفكّر فيه الباحث، ذلك أنها تتطلب الكثير من الخبرات و المعارف، ناهيك عن الاطلاع الواسع على الكثير من العلوم، والتمكن منها في بعض الأحيان، حتى يمتلك الباحث الخبرة الكافية التي تؤهله إلى فهم التراث واستيعاب نظرياته المتداخلة، وهذا ما قام به "الأستاذ الطيب دبه"، كخطوة أساسية لبناء جسر يربط به بين الحداثة

التي مثلت الفكر السيميائي الغربي، وبين التراث العربي الإسلامي الذي تمثّل ها هنا في فكر أبي حيّان التوحيدي، ضمن منهج توافقي، والذي ساقنا إلى استنتاج ما يلي:

- ✓ ضرورة الاطلاع على ما جاءت به النظريات الحديثة اطلاعا واعيا، حتى تحْصُل المقاربة السّويّة، من دون زلل في الفهم الذي قد ينجم عنه خطأ في الحكم و التقدير.
- ✓ إنّ مبدأ الخصوصيّة الدينية أو خصوصية المعتقد؛ تزيد من حدّة الجدل، وتزيد كذلك من مسافة الهوّة بين الحداثة والتراث، ذلك أنّ المعتقد الحداثي كان يميل إلى النّظرة المادية، في حين أنّ النّظرة الإسلامية قد عمّت كل أركان التراث.
- ✓ يمكن أن ندرك أنّ الطّيب دبّه من خلال هذا الكتاب قد تخطّى هاجس الخوف لما تحمله الحداثة من هجمات تغريبية، لتصبح في يده آليات وإجراءات مكّنته من اكتشاف ما للتراث من أفكار علميّة.

ومن خلال هذه الخطوة الحضارية التي قام بها "الأستاذ الطيب"، والتي تمثل حتمية علمية يقتضيها الفكر الإنساني، وهو يصبو إلى التطور والرقي، نرى نحن أيضا أنّه من واجب كلّ باحث عربي أن يطلع على ما في تراثه، وما يزخر به من علوم ونظريات، وأن يسخّر تفكيره لخدمته، ولا يغفل عما وصل إليه العلم الحديث من حقائق، فالناظر المدقّق في التراث والحداثة؛ لم يسعه إلّا أن يلاحظ ما للتراث العربي الإسلامي من رقي وتطوّر قد سبق به الزمان، وما للعلم الحديث من أدوات وإجراءات التي من شأنها أن تثبت ذلك، بل وتعززه في بعض الأحيان، مع مراعاة للخصوصية الدينية.

8. المراجع

[1]– ينظر: محمّد سبيلا، مدارات الحداثة، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، د ط، 2009م، ص 23.

[2]– ينظر: محمد عابد الجابري، التراث والحداثة دراسات ومناقشات، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط 1، 1991م، ص 23.

[3]– الطيب دبّه، السيرة العلميّة للأستاذ الطيب دبّه، نشرت منذ ستّة سنوات، اطلع عليه في 2022/08/04، منصـــــــــــــة أريـــــــــــــد، https://portal.arid.my/ar-LY/ApplicationUsers/GetProfile/0001-3168.

[4]– ينظر: المرجع نفسه. المنصة نفسها.

[5]– مصطفى غلفان، اللسانيات العربية الحديثة دراسة نقدية في المصادر والأسس النظرية والمنهجية، سلسلة رسائل وأطروحات رقم 04، جامعة الحسن الثاني، عين الشق كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ص 92.

[6]– حسن حنفي، التراث والتجديد، موقفنا من التراث القديم، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط 4، 1412هـ/1992م، ص 13.

[7]– ينظر: بسام جرار، الفكر الإسلامي، نون للأبحاث والدراسات القرآنية، البيرة، فلسطين، د ط، د ت، ص 383.

[8]– ينظر: الطيب دبّه، التفكير السيميائي في اللغة والأدب، دراسة في تراث أبي حيان التوحيدي، عالم الكتب الحديث للتوزيع والنشر، إربد، الأردن، ط 1، 2015م، ص 19-20.

[9]– طه عبد الرحمان، روح الحداثة، المدخل إلى تأسيس الحداثة الإسلامية، المركز الثقافي العربي منتدى سور الأزبكية (المغرب/لبنان) ، ط 1، 2006م، ص 23.

[10]– نعمان عبد الحميد بوقرة، الكتابة اللسانية العربية من الرؤية الغربية إلى التأصيل الإسلامي للمنهج، قراءة وصفية في صور التلقي ونماذج الصياغة، مجلة الدراسات اللغوية والأدبية، كلية الآداب، جامعة الملك سعود، الرياض، المملكة العربية السعودية، د ت، ص 03.

[11]– الطيب دبّه، التفكير السيميائي في اللغة والأدب، ص01.

[12]– عبد الحليم مهور باشة، الحداثة الغربية وأنماط الوعي بها في الفكر العربي المعاصر، دراسة مقارنة بين عبد الله العروي وطه عبد الرحمان، مجلّة تبيّن للدراسات الفكرية والثقافية، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، العدد 6/23 شتاء 2018م، ص 104.

[13]– الطيب دبّه، التفكير السيميائي في اللغة والأدب، ص 01.

[14]– حسن حنفي، التراث والتجديد، موقفنا من التراث القديم، ص 21.

[15]– الطيب دبّه التفكير السيميائي في اللغة والأدب، ص 02.

[16]– * هو أبو حيّان التوحيدي علي بن محمّد بن العباس، ولد في بغداد سنة 310هـ وتوفي بعد سنة 400هـ (لمعرفة المزيد عن شخصية التوحيدي، ينظر: الطيب دبّه التفكير السيميائي في اللغة والأدب، ص 21)

[17]– الطيب دبّه، المرجع نفسه، ص 03.

[18]– ينظر: المرجع نفسه، ص 12.

[19]– المرجع نفسه، ص 12.

[20]– ينظر: المرجع نفسه، ص 21.

[21]– الطيب دبّه، المرجع نفسه، ص 03.

[22]– ينظر: المرجع نفسه، ص 25.

[23]– ينظر: المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[24]– المرجع نفسه، ص 26.

[25]– ينظر: المرجع نفسه، ص 26–31.

[26]– المرجع نفسه، ص 33.

[27]– ينظر: المرجع نفسه، ص 34.

[28]– ينظر: المرجع نفسه، ص 42–45.

[29]– المرجع نفسه، ص49 عن بيار غيرو، السيمياء، ترجمة: أنطون أبو زيد، منشورات عويدات، بيروت، ط 2، 1986م، ص 14.

[30]– ينظر: المرجع نفسه، ص 63.

[31]– ينظر: المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[32]– المرجع نفسه، ص 68.

[33]– ينظر: المرجع نفسه، ص 68.

[34]– ينظر: المرجع نفسه، ص 74–79.

[35]– المرجع نفسه، ص 80.

[36]– المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[37]– ينظر: المرجع نفسه، ص 85–86.

[38]– المرجع نفسه، ص 89.

[39]– ينظر: المرجع نفسه، ص 107.

[40]–ينظر: المرجع نفسه، ص 116.